

البَابُ الثَّانِي

الدعوة إلى التوحيد

(طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يتركه -
ويعملون بانسنة حين نطقوا)

حدثنا شريف

إذا كانت الأرض الطيبة تنتج حاجة أهلها من الغذاء ، ويمتد عطاء الله فيها إلى أبعد من حدودها - فكذلك الأمة العظيمة تنتج حاجاتها من العطاء مصلحين أو ولاة أو علماء . ولما أخرج الفساد المسلمين إلى دليل يأخذ بيدهم في التيه الذي أركسوا فيه - كان محمد بن عبد الوهاب جواب السماء لتعيد الجزيرة العربية إلى سيرتها الأولى مصدراً للنور حيث ارتفعت قواعد البيت العتيق ، ونزلت آخرة الرسالات بلسان عربي على نبي عربي .

وما كان أعجب أرض نجد في جدوبتها ، وقبائل بني حنيفة وبني تميم في خشونتها ، منذ ظهر الإسلام ودارت فيها حروب الردة الضروس حتى استهلكت دعوة ابن عبد الوهاب ، لتبدد فيها مرة أخرى ظلمات شرك ران على القلوب ، وزلزل قواعد الجماعة ، ورحض مواهب العلماء ، وأبغض دعاة الإصلاح !

وفي اختيار السماء أرض نجد بذاتها منطلقاً للدعوة الإسلامية من جديد آية من الآيات ، كثيرة العبر والعظات :

ومن أهمها في هذا المقام ثبوت اقتدار الحنيفية السمحة على أن تقود أقدام السائرين على المحجة الواضحة ، وأن تحتشد في الصدع بالدعوة أجيال متلاحقة تصنع بها السماء انتصاره في حياته ، وتصلق سيوف الشجعان في سواعد صُدُق في اللقاء صُبر في الشدائد ؛ لتزدهر الشجرة ، وتنبث الحبة الواحدة مائة حبة في غير من واد من وديان النماء والارتقاء ، وأن يعيد التاريخ نفسه فيتيج « للمنهج السلي » أن يهدي الناس للحق ويفتح أرض الله لعباده : بالفهم الصحيح للدين والجهاد الصادق في سبيله .

وظهور ابن عبد الوهاب وازدهار فكره في مجالسه وانتشاره فيما عداها ، وديمومة تطبيقه في

حياته نصف قرن أوزيد شيئاً من حربلاً إلى العينة إلى الدرعية فأصقاع نجد ، ومنها إلى الأقطار المتنازحة الديار في جزيرة العرب - هي مواضع الفصل الأول من هذا الباب .

والفصل الثاني فصل في الأصول التي قامت عليها الدعوة وتبادر إلى العمل بفحورها أتباعها واستحبوا الموت في سبيلها ؛ لتكتب لأمتهم الحياة بإخلاص التوحيد من شوائب شرك عند زرع العقيدة ، فصير الرجال أساخاً يعبدون مالا يملك لهم النفع أو الضرر . فلما تحررت نفوسهم من الخرافات والانحرافات كانوا حقاً مسلمين ، فقدروا على أن يحملوا تبعاتهم وأن يمدثوا الإصلاح الذي تنادى به الأمة في كل مكان .

وإذ كان الإمام إمام فقه في المقام الأول ، والفقه قوام الشريعة - فقد أوردنا في الفصل الثالث فرعين : أولهما عن (الاجتهاد) وهو أساس الدعوة وعرضنا نماذج من فقه الإمام في العادات والمعاملات تتجلى فيها طريقة الإمام في بسط آرائه والدفاع عن الحرية القانونية في إنشاء العقود وأنواع الشروط ليكون الإنسان جديراً بالخلافة عن الخالق جل ثناؤه في الدنيا التي سخرها له ، ولتضافر حرية السعى في الحياة مع عبادة الله وحده في فتح الأبواب للمسلم ، ليتخذ الدنيا ضرباً للآخرة . فيعمر العالم بالعمل الصالح .

أما الفرع الآخر فخاص بالتأويل «الباطني» أو «الرمزي» المعطل للنصوص القطعية الورد والدلالة في العبادات والمعاملات ، وهي قوام الدين ، من يخرج عليها يتجاوز الإسلام إلى عالم الخيال ، ويعمل بتشريع من صنع الناس .

والباطنية هي العدو التقليدي للمنهج السلفي الذي رفع أعلامه عالية محمد بن عبد الوهاب .

الفصل الأول

الداعى إلى الله

(كل عبادة لا يتبعها أصحاب محمد فلا تعدوها
فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً واتقوا الله يا معشر القراء
وحذروا طريق من قبلكم) .
حديثة

نحن الآن فى نجد حيث انتشر المذهب الحنبلى بعد موت الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى فى سنة
٢٤١ . وبنو شيان منتشرون فى كل مكان بالخليج العربى من البصرة (نجد) حتى البحرين .
وفى النصف الأخير من القرن الثالث مكن للمذهب بالعراق تلاميذ الإمام وتلاميذهم ،
وتقبلوا به فى بقاع الإسلام ، حتى بلغ الأندلس على يد بقى بن مخلد (٢٧٦) .
وفى القرن الرابع مكن له أبو بكر الخلال (٣١١) بالعراق وأبو القاسم الخرقى (٣٣٤) بالشام .
ودرج الأتباع على المنهج السلقى للإمام كأسلوب فكر وطريقة حياة . يقول فى منهجهم الذاتى
والعلمى واحد من أعيانهم^(١) :

(هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المحالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب
عليهم الجدد ، وقل عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا من الآراء إلى
الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل . غلبت عليهم الأعمال الصالحة ، فلم يوفقوا فى
العلوم الغامضة . بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من
خشية بارئها ، ولم أحفظ عليهم تشبيها ، والله أعلم أنى لا أعلم فى الإسلام طائفة محقة خالية من
البدع سوى من سلك هذا الطريق) .

وفى القرن الخامس برز من حنابلة نجد عالمان من «بنى تميم» هما :
عبد الواحد بن عبد العزيز التميمى (٤١٠) وعبد الوهاب بن عبد العزيز التميمى (٤٨٨) .
وفى القرن العاشر تعاقب حنابلة مشهورون فى نجد . منهم أحمد بن يحيى بن عطوة التميمى
(٩٤٨) = (١٤٤١) فى بلدة الجبيلة الخالدة بذكرى شهداء حروب الردة وتلمذ له شهاب الدين
أحمد بن عبد الله .

(١) أبو الوفاء بن عقيل (٤٣٠ - ٥١٣)

كما ظهر فيهم شرف الدين أبو النجا موسى ، وأحمد بن موسى ، وأحمد بن محمد بن مشرف ثم
مرعى بن يوسف الحنبلي النجدى (١٠٣٣ - ١٦٢٣) (١) وعبد الله آل عبد الوهاب (١٠١٠ -
١٦٤٦) وقد ولى قضاء العينة . فابنه عبد الوهاب (١٧١٢) .

وعاصر عبد الوهاب فقيه كبير من «آل مشرف» هو صديقه سليمان بن علي بن مشرف وقد صار
أشهر الحنابلة في عصره حتى مات سنة ١٦٦٨ م عن مؤلفات معروفة منها كتاب (فقه الناسك في
أحكام الناسك) .

وولى سليمان قضاء حريملا ثم العينة ، وولد له ابن أسماه عبد الوهاب .
وضرب عبد الوهاب بن سليمان في العلم بسهم : وولى قضاء حريملا .
وفي سنة ١١١٥ للهجرة ، ١٧٠٣ للميلاد ، ولد له ابن أسماه «محمد» .
وآل مشرف بطن من بطون حنظلة بن مالك بن زيد مناة تميم . وتيم من أكبر القبائل العربية
عدداً ، وأوسعها انتشاراً في إقليم نجد . وبهم تتمرج القبائل . ومنها «بنو حنيفة» .
قالوا لو تأخر الإسلام لأكلت تميم العرب !

وإلى نجد كان خلفاء بني أمية يبعثون أبناءهم ليحتفظوا بالقصصى : إذ يُنجدون . فلا تخلط
ألسنتهم نظرية المدائن أو عجمة الهجاء ، ويعودوا من البادية عرباً خلص اللسان صحاح الأبدان .
ومن نجد اشتهر شعراء العرب منذ الجاهلية : فلهم في أصحاب المعلقات أربعة من عشرة :
زهير بن أبي سلمى ، وعبيد بن الأبرص ، وامرؤ القيس ، وعنترة .
وممنهم في المائة الأولى من عُمر الإسلام : أشهر وأشعر شعرائها : الفرزدق وجريير والحطيئة
والخنساء .

وبميلاد «محمد بن عبد الوهاب» في هذه البقعة من جزيرة العرب كُتبت لنجد ولمذهب
الحنبلي والعالم الإسلامى صفحات جديدة .

» » »

نشأ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التيمي في «العينة» بوادى حنيفة - وهي قرية
باليثامة غرب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية الحالية - وتلمذ من حدائثه البكرة لأبيه ،
وكان أبوه مثابة للوافدين من قريب وبعيد . يطلبون التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام
أحمد .

(١) وهو القائل :

إذ قلده للناس لأئمة إني
قد فتوته وأعشق قوله
إني مذهب الحير بن حبل راعت
ولناس بما يعنفون مذهب

حفظ الصبي القرآن قبل العاشرة . وأحاط في حلقة أبيه بكتب السلف ، ثم انطلق في العلم ما وسعه ، فلما وقع على مؤلفات ابن تيمية ملكت عليه لُبُه .

وفي المتحف البريטاني في لندن بعض رسائل ابن تيمية نسخها محمد بن عبد الوهاب بخط يده ، مما يشير إلى أنه يستقصى فكره ، وبقتى أثره بيده وعقله ، وسراه فيما بعد يصنع صنيعه . وذات يوم قدمه أبوه ليؤم المصلين وهو في فناء السن . بل إن الأب ليقول عن الابن ما يرويه حسين بن غنام - مؤرخ الأيام العظيمة بتكليف من محمد بن عبد الوهاب - « لقد استندت من ولدي محمد فوائد شتى في الأحكام » .

ثم حج عالم العينة الجديد واعتمر ، فشهد من بدع الحجاج ومراسم تعظيم القبور والاستغاثة بالمولق ما حزنه ، وعرف أن فساد الفكر والفعل في أهل نجد ليس إلا بعض الفساد الذي يعرضه - مركزاً في الزمان والمكان - حجاج بيت الله الحرام من كل فج .

ثم اجتذبه جلال المكان وعلم علمائه ، فرجع إلى الحجاز يتلقى الفقه والحديث على يد الشيخ محمد حياة السدي (١١٦٥) . ثم لزم عالماً من أهل نجد من آل سيف رؤساء بلدة الجمعة ، هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف (١١٨٣) فتذاكر حالة الأمة بعامة ، وحالة نجد بخاصة للإصلاح .

وتحدثنا عن استعمال السلاح ، والشباب يغرى بالقوة ، فهي أعجل إلى الغرض ، وهي بعض الجهاد الذي سيستطرد إليه التلميذ فيما بعد ، أما الشيوخ فيؤثرون استعمال العلم . فهو سلاحهم ومآل لهم ، وهو أنجح على المدى الطويل وأفلح في النهوض بمجموع الأمة .

قال الشيخ يوماً لتلميذه :

تريد أن ترى ما أعددتنا من سلاح للمجتمعة ؟

قال : بلى :

فقاده إلى قاعة كتبه وأظهره على ما فيها من مؤلفات ثم قال : هذا ما أعددتنا من سلاح ! وفي مجلس من المجالس سأل الطالب شيخه عن الأدعية والنداءات التي ينادى بها الناس ، إذ يذكرون الأولياء ويزورون . وكأنهم يحجون - الأضرحة فأجاب بقوله تعالى :

(إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

وسرى بعد أن السؤال والجواب هما مهمة حياة ابن عبد الوهاب وطريقته ، فهذا فكر فتى أصيل نبت في بكور الشباب . تريده السنون قوة بالمعرفة ، والتجربة حكمة بالرأى النضيج ، وبهيمى له الصدام طاقة الانفجار .

وبشرية الرسول الخالصة لا تأذن لأحد أن يرفع إلى مقام العبادة أحداً إلا الخالق جل شأنه ،

لكن (الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب الخلة السوداء في ظلمة الليل). كما يقول عليه السلام.
فصل الخائب عن شيخه وقد اهتدى إلى طريقته في الإصلاح وهي تعليم دين الله الخالص .
فرجع من الحجاز إلى نجد ، ليلبث قليلاً . ثم رحل إلى بغداد ثم إلى البصرة . والبلدان من أسبق
مراكز العلم في الإسلام .

~ ~ ~

أقام العالم الناشئ في البصرة سنوات أربعاً درس فيها على عالمها الشيخ محمد المجموعي علوم
الحديث واللغة ، ورأى من تقديس الشيعة فيها للمزارات والأضرحة والأئمة ما أرى على ما شهده
في الحجاز ، فاستكره في مجالسه فكان يبهت سائليه فيلسون .

قال فيما بعد : (كان أناس من مشركي البصرة يأتون إليّ بشبهات يلقيونها عليّ . فأقول وهم
قعود لدى : لا تصلح العبادة كلها إلا لله ، ويبهت كل منهم فلا ينطق) .

وضاقت به صدور الناس . واعتدوا عليه وعلى شيخه المجموعي . فخرج في حرّة لقيظ من
البصرة إلى بلدة الزبير ، فبقى فيها أياماً يفكر في الذهاب إلى الشام ، ومنته الضيقة . فرجع إلى
الأحساء ، فأقام زماناً في ضيافة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي ، ثم قفل راجعاً
إلى حريملا^(١) وهو في الخامسة والثلاثين من عمره . وكان أبوه قد انتقل إليها من العينة خلافاً مع
أميرها .

وفي الحريملا استقر فكره على إعادة الناس إلى التوحيد . والقضاء على مظاهر الشرك ، فوضع
كتابه (التوحيد الذي هو حق المولى على العبيد) .

واختلفت آراؤه في مؤلفه عن آراء أبيه ، فصاحب أباه بالمعروف حتى توفي في سنة ١١٥٣ هـ .
عندئذ أعلن دعوته ونشر كتابه . وتناقلت آراءه بلدان العارض ، من حريملا إلى العينة

(١) ورد في بعض النكت أن شيخ ذهب من بغداد إلى كردستان وإيران ، ودرس التصوف ثم جدد عن طريق بيت
المقدس . وكرر ذلك بعض المستشرقين وهو غير صحيح . إذ لا يذكره علماء نجد ممن ألفوا في سيرة الشيخ . ولم يورد آل الشيخ فيما
يكتونه أنه خرج إلى خارج جزيرة العرب . وقد ناقشنا في هذه الواقعة الشيخ عبد العزيز بن باز كبير علماء السعودية في الرياض مساء
يوم ١٤/١/١٩٧٦ فأنكر ما أورده المؤلفون من رحلة الشيخ إلى كردستان وإيران ، وقرأه تلقى هذا عن أشياخه ومنهم حمدة
الشيخ وخاصة شيخه الذي تلقى النعم عليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

وثابت أن الشيخ (ابن عبد الوهاب) لم يعرف اللغة الفارسية . ولا أثر في فقهه أو كتبه لذلك

وهو قد أعلن في بعض رسائله أنه لا بدعوى إلى مذهب صوفي أو فني .

إنما وردت هذه الشبهة في كتاب مؤلف غير معروف (لمع الشهاد في سيرة محمد بن عبد الوهاب) . لا ترد في كتب من
عاصروا الشيخ كتلميذه حسين بن غنام . أو بعده بسنوات كأمين بشر .

والشيخ قد ذكر رحلاته . وليس فيه رحلة إلى فارس أو خارج نجد ن عربية . فعقل الشيخ وعدمه عربي خالص . ومن أصانته
العربية كان تلقى العقول له بالقول .

فالدرعية ، ذلك المحور الذى كان يتحرك فيه ليحرك جزيرة العرب حوله .
واستنسخ بعض كتابه ، فذاع بين المثقفة من أهل نجد . وظهر تأثيره فى كيد الكائدين له ،
فحرضوا بعض العبيد ليقتلوه ، فكثروا له فى جوف الليل ليتسوروا داره لولا أن مر بهم بعض السيارة
من البدو ، فانفض الكمين ونجا الشيخ .
ولم يكن صدفة أن تسوق السماء هؤلاء ، وإنما سهرت عين السماء على حياة رجل أعدته
ليحدث الإصلاح المنتظر .

هجر الشيخ حريلا إلى العينة كمثلى ما هجر البصرة - فالعينة مألوف له . والهجرة سنة
الرسول والشيخ عليم بتاريخ الجهل فى بلدان نجد . لقد قتل جهال بلدة الجناح فى ذات يوم
علماءها كلهم !

وسيرى قبل أن يموت بعشر سنين بلدة الخبراء تقتل عالمها (منصور أبا الخيل) وأخاه وهما فى
طريقهما للمسجد ليؤم المصلين منهم .

وفى العينة أصهر إلى أميرها (عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر) ثم صار الأمير من
أتباعه ، وعلا نجم الشيخ بعد إذ جاهر الأمير بدعوته وازداد أتباعه ، وكان قد بلغ الأربعين من
عمره . والسلطة معه .

وتأييد السلطة للمذاهب عظيم الأثر فى انتشارها محلية كانت أم عالمية ، علمية كانت أم
اجتماعية :

فالأفكار إذا أبدتها السلطة تأخذ سبيلها إلى الناس فى يسر وقصير أجل .
وإذا عارضتها فقد تفسد عليها أمرها إذا كانت غير قادرة على البقاء ، لكنها إذا عارضت الفكر
الصحيح هيات له الأسباب : فإما أتاح له الانتشار الذى يشبه الانفجار ، وإما أخرته زمانا أو
أخسرتة معركة ، لكنه لا يموت .

ولقد كان ذلك دأب الإسلام من يوم ظهر : قاومته مكة فانتشر . وعملت المدينة فى
كلائته - إذ صار دولة - فبلغ حيث أراد الله فى مهاب الرياح الأربعة . ولما عوقت الدولة - بجعل
أولى الأمر - فكر ابن تيمية ، حبس ومعه تلميذه ابن القيم ، لكن الفكر ملك أفئدة العلماء فى
انتظار ابن عبد الوهاب ، ليفجر بتابعيه ، ويستخدم السلطان فى نشره .

والخرافات بضاعة مزجاة فى كل مكان ، وينجد خاصة ، لقلة العلماء والمتعلمين وفساد آراء
الكثيرين :

فهذا « فحل النخل » فى بلدة منفوحة يشد إليه العوانس رحالهن فيدعونه بمبهلات : (يا فحل

ارزقني زوجا قبل الحول) .

وهذه شجرة الذئب تؤمها النساء ، ويلقن عليها خرقا بالية لعل العواتس منهن يرزقن الأرواح والعواقر يرزقن الأولاد والوالدات يبقى لهن ذكورهن .

وهذا قبر زيد بن الخطاب في « الحيلة »^(١) يحج إليه الناس متمسكين تفريح كروهم .

وهذا غار (بنت الأمير) في أسفل (الدرعية) يهدى إليه الخبز واللحم .

وهذا رجل في « الخرج » اسمه (تاج) يقدمون النذور له في انتظار نفعه واتقاء ضره .

حتى الفلوات كانت تقدم فيها القرابين إلى الشياطين لترضى !

وصاحب النذر يذبح ذبعا ويلطخ جسمه بدمه ليقبل نذره .

والمدين يذرف الدمع عند قبر الولى ليعينه صاحب القبر على سداد دينه .

والراعى يضع قلائد في أعناق غنمه لتعيش . والتاجر يضع ظلف الحيوان على باب متجره .

والناس يحملون الرقى والتائم والأحجية والخرز ، والنساء يلطمن الحدود وراء احتنازات ،

ويولولن كأتهن الشياطين الفرعة .

وهناك أولياء أحياء وقبور موقى بقدسها ويقدهم الناس . وفي كل مكان أصحاب بدع

وتجارات بها كالتى أسلفنا في غير موضع .

» * «

استفتح الشيخ جهاده ببيان منهاجه فقال : إنه لا يدعو إلى طريقة جديدة وإنما يعيى الدين ،

ويدافع عن السنة ويدفع الخارجين عليها ، ويحتج رأيه ، ولا يقلد أحدا .

وإذا وجد في غير المذهب الخليل ما هو أصلح للناس - فهو يذهب إليه باجتهاده : قل في

إحدى رسائله : (إني لم آت بجهالة ، بل أقولها والله الحمد : إن ربي هداني إلى الصراط المستقيم

دينا فيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ولست والله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو

غيره ، بل أدعو الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التى أوصى بها أول أمته

وآخريهم) .

وانطلق يتلقى بيعة الجمهور له (على دين الله ورسوله وعداء أهل الباطل ، كما تباع على عداء

كل من عادى الشيخ وموالاته كل من والاه ولو أنه أميرنا عثمان بن معمر) . فالشيخ يختلط للدين

من فلتات الأمراء والخرافاتهم . ويرفع شأن الدعوة على الولاء لتحكام لتكون كلمة الله هي العليا .

وستسلك الدعوة هذه السبيل على الدوام ، فنسمع قول ابنه عبد الله إذ جمل رسالة أبيه بعد

(١) الحيلة قرية دارت فيها سنة ١٣ معركة الكبيرة بين المسلمين والمتردين من أهل البغامة ، واستشهد فيها عدد من نصحابه

ودفوا في ثراها ، وقيل : بنيت قبة على قبر زيد بن الخطاب . فكان العامة يعظمونها .

وفاته في إحدى مناقشات عبد الله لأهل مكة سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣ :

(مذهبنا في الأصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقنا طريق السلف) .

فلا جديد في المذهب أو الطريقة ، وإنما الجديد في العزم والتصميم وفي اتخاذ الجهاد وسيلة له دون الاكتفاء باستنكار المنكر بالقلب أو بالكلام .

وأطلق أتباع الشيخ على أنفسهم (الحنابلة) أو (السلفيين) أو (الموحدين) .

وأطلق خصومه على دعوته وصف الوهابية على اعتبار أنها بدعة . وتنادى الأتراك في الأضاليل ، وقالوا عن أصحابه : إنهم (الخوارج) أو (الروافض) والطائفتان نقيضان للدعوة . وهما فيما بينهما خصمان لدودان ، فإنما خرج الخوارج على علي وشيعته والأمة التي بايعت له . والشيخ يدعو دعوة الأمة وأهل السنة ، ولا يذهب مذاهب الشيعة .

وفي أوائل القرن الهجري الحالي كتب مؤلف من أصل تركي هو إسماعيل سرهنك باشا يقول : إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (.) أتى بعبارات مزورة ونسب ٣٠ على العوام حتى يتبعوه ، وألف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا ككفر أكثر أهل التوحيد . وألف العلماء رسائل في الرد عليه ، حتى أخوه الشيخ سليمان وبقيّة مشايخه) .

ولا ينقض الفكر إلا فكر أعلى منه حجة . ولو كانت مخالفة الأخ لأخيه حجة لحججنا المؤلف بكتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) حيث تقرأ قول ابن بشر : (كان للشيخ محمد أخ هو سليمان ابن عبد الوهاب كان مناوئا لأخيه ، ألف رسالة يعترض فيها على دعوته اسمها (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية) ، وفي سنة ١١٩٠ قدم الدرعية ثائبا ، وبقي فيها حتى وفاة أخيه الإمام) .

ولا على الإمام لو عالفه واحد ، فلقد خالفه مالا عدد له ممن جروا وراء الشهوة أو السلطة أو غلبت عليهم الغفلة .

وأكثر الذين يخالفون الشيخ ممن هم وزن لا يخرجونه على الحق . بل يخففون في التقدير فلا يوافقون على تكفير الرجال من جراء ما يقدرونه عن جهالة ويدعون البدع ذاتها ومن قرفوها . ويروهم يعملون أعمال الكافرين عن غير فهم أو عن تقليد . والتقليد بذاته إحدى الكبائر ، إذ لا يقبل تقليد في العبادات ، لأن الإيمان لا يحتمل التقليد ، بل يجب له الإدراك الذاتي .

• • •

والمعنى الأساسي للشهادة أن الأمر كله لله سبحانه . وليس في الوجود ما يعظمه الناس سواه وهو القائل جل جلاله : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا تشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ولكن الناس يلغون ذواتهم

وكراماتهم ويمجدون الملوك والأمراء والأقوياء والقوى المجهولة بالفعل أو بالفكر ، ويتعجبون إلى مقابر الأولياء ، ويقدمون لها النذور ، ويدبحون الذبائح ، ويقيمون القباب الشاحخة للموتى . ويشدون الرجال إلى القبور في مظاهرات كأنها أداء الشعائر ! ويطوفون بمقابرهم طواف الطقوس التي يمجدها اليهود والنصارى . بل إن من الناس من يخلفون بالله : فيكذبون . فإذا حلفوا بالأولياء ، لم يخلفوا إلا صادقين !

ومن الردة عن الدين ما هو فعلى ، ومنها ما هو رسمى : ومن الفعل أن يقارف الناس أعمال الكفار أو يعطّلوا حدود الله وإن كانوا يطقون بالشهادة ، أما الكفر الرسمى فهو المجاهرة بالإلحاد الصراح . وقل أن يقع .

والفرق بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام أنهم لما وحدوا الله واتحدوا على دينه خنصت عقيدتهم وسحت نفوسهم وجاهدوا للدين فسادوا العالم في سنين بعد أن كانوا مسودين من شمال ويمين ، من الروم والفرس !

والفرق بين الأجيال الثلاثة المفضلة (جيل الصحابة ، والتابعين ، وتابعى التابعين) وبين ما أعقبها من أجيال يظهر جلياً في ظهور الإسلام وازدهاره في القرون الأولى . في حين كانت القرون الأخرى قرون انكماش في الفكر وحرمان من الابتكار وازدياد للتخلف ، كلما نتابع عصر بعد عصر وبأقدار متناسبة مع ظهور البدع .

وطلب الخير من غير الله تعويل على قوى مجهولة ومضللة وإهدار لإنسانية الناس وتعطيل لسعيهم وتخریب لمرافق الدنيا !

وحذر البطش من السلاطين والباطنيين والمجهولين وغضب الموتى يورث الحين والقلق والوهم فتسل الأنفس وتصاب قرائع الناس بالشلل .

لذلك كان الإسلام حرباً على الأصنام أيا كانت : دمي أو أشياء أو أشخاصاً أو أفكاراً - تحول دون توحيد الواحد القهار .

كان للعرب في الجاهلية شجرة (ذات أنواط) يعلقون عليها سلاحهم ، فنهاهم عنها النبي عليه الصلاة والسلام .

وتبع عمر هدى النبي في شأن الشجرة التي بايع تحتها المسلمون (بيعة الرضوان) ، فأمر بها فقطعت ، لأنه عرف أن العرب يحنون إليها ، مجرد الحنين .

ونهى النبي عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ القبور مساجد قال : (إن من كانوا قبكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) فأنهى الناس زماناً ثم عادوا .

ولما نهى ابن تيمية عن هذه البدع وأمثالها وعذب وسجن ازداد فكره ذيوعا في الأمة ، لأنه ثبت ولم يتراجع . ولما مات في سجنه زاد علوا في ضمير الأمة وتأثيرا في فكرها : فمحمد بن عبد الوهاب يحى على موعد مع الزمن . ولما سافت السماء إليه تأييدا من أمير العينة كان الله يزع بالسلطان إذا عمل بالقرآن .

وشق الشيخ طريق ابن تيمية من جديد دون أن يقف عند النصيح أو التدريس - أن قد واثاه الزمان ليترقى من تدريس الفقه إلى تطبيقه في الأمة والدولة ، وهى فرصة لم يتحها الزمان لابن تيمية .

- ١ - هدم قبورا كان يستغاث بأصحابها ، وفى طليعتها قبة (زيد بن الخطاب) فى الجيلة .
- ٢ - قطع الشجرات التى كان الضلال ينسبون إليها الكرامات . فلم تعد الشجرة الملعونة (الذيب) ترزق العوانس رجالا أو العواقر بنين .
- ٣ - وجلس مجلس التدريس المنظم لمنهج متكامل يحمل مسئولية تنفيذه حاكم يقدر على تطبيقه فى جماعة تتبادر به إلى نصره دينها وصلاح دنياها ، فبسر الإصلاح فى كل وجه .
- ٤ - وبعث رسالاته للعلماء فى سائر أرجاء الإسلام .

٥ - وأقام الحدود : ففى ذات يوم حىء بامرأة ترى متلبسة . وشهد عليها الشهود وأقرت ، وثبت أنها صحيحة العقل ، وكانت نعمت إلى أمير الأحساء بنسب ، فحُصبت أنه سيعصمها من الرجم ، لكن الشيخ أمر بخدّها . فرجمت . وكان أمير العينة أول من نفذوا الحد فيها . وقامت قيامة أمير الأحساء سليمان بن محمد بن عزيز . وبصبص إليه الأدعياء من العلماء بالأذنان . قال قائل منهم : إن حد الرجم لا يوقع إلا بعد استئذان ولى الأمر ، واحتج الشيخ عليهم بصحيح الفقه أن من تغلب على بلد أو بلدان كان له حكم الإمام فى جميع الأشياء . والناس من قبل الإمام أحمد حتى أيام الإمام محمد بن عبد الوهاب لم يجتمعوا على إمام واحد . وطلب أمير الأحساء إخراجه من العينة مستندا إلى فتيا هؤلاء العلماء . وكتب إلى أمير العينة يتهدده بأنه سيمنع إرسال حقوق الأمير لديه ، على نخل تحت يديه ، وأنه سيمنع خراجا كان له فى الأحساء مقداره اثنا عشر ألف دينار .

وأبلغ أمير العينة الشيخ بما جاء من وعيد . وفى رواية أخرى أن أمير الأحساء كتب إلى أمير العينة : (اقلته فإن لم تقتله قطعنا - خراجك) .

وكان قلب الأمير أضعف من أن يصير فى الشدة ، ومن أن يجاهد فى الله ، فاكتفى بأن يطلب إلى الشيخ الخروج عن دياره .

قال الشيخ : إن الذي أدعوا إليه هو دين الله ، وإن صبرت واستقيمت وقبلت هذا الخير فأبشر بأن الله سينصرك ويحميك من هذا البدوي وغيره ، وسوف يوليكَ الله بلاده وعشيرته . . .
قال الأمير : إنا لا نستطيع محاربتَه ولا صبر لنا على مخالفتَه .
هكذا كان فرع أمير العيينة من أمير الأحساء أكبر من خشية الله أو فهمه لمصلحته ، فخرج الشيخ من العينة إلى مهاجرة الثاني في الدرعية حيث أراد الله أن يبلغ أوجه .

إلى الدرعية

خرج الشيخ على قدميه سنة ١١٥٨ لم يعطه أمير العيينة راحلة ، وسار طول النهار راجلا إلى الدرعية حتى دخلها بليل . فقصده واحدا من أتباعه ، وخاف الرجل أمير الدرعية (محمد بن سعود) فأنزل الشيخ على قلبه الطمأنينة .

وكان من أتباعه بالدرعية أخوان للأمير همامشاري وثنيان ابنا سعود (١)
لجأ مشاري وثنيان إلى زوج الأمير « فحدثاها حديث الشيخ وما يدعوا إليه ، فقالت للأمير : (إن هذا الرجل ساقه الله إليك ، وهذا غنيمة فاغنم ما خصك الله به) ، وقال فائل من الأخوين : (سر إليه بنفسك وأظهر تعظيمه - يسلم من أذى الناس) . فسار إليه .

قال له الأمير إذ لقيه : (أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة)
قال الشيخ : (وأنا أبشرك بالعز والفكرين وهي كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد . وهي كلمة التوحيد . وأول ما دعا إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم)
قال الأمير : (يا شيخ ، إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه ، وأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به . الجهاد لمن خالف التوحيد . ولكن أريد أن أشرط عليك اثنتين :

الأولى : نحن إذا قُتِلنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا .

والأخرى : أن لي على الدرعية قانونا (فريضة) آخذهم منهم في وقت الحار وأخاف أن تقول : لا تأخذ منهم شيئا) .

(١) آل سعود من عشيرة عجرة ، ومن قبائل ربيعة من حقة بكرين والثلث ولربيعه فروعها في نجد والعراق والشام ، كان جدتهم مانع بن الحبيب المريدي يقطن بلدة القطيف وتربطه لحة نسب بآل بدرع صاحب حجر البجامة والخزعة المعروفين بآل بدرع . فقصده إلى بدرع سنة ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م فأنقذه فقبيلة استقر بها على مقربة من الدرعية ، فاستعمره وتنازل فيها حنفته وزادوا رفعتها ، وجعلوا الدرعية عاصمة لها .

قال الشيخ : (أيها الأمير) ، أما الأولى فابسط يدك أيديك : الدم الدم والهدم الهدم ، وأما الأخرى فلفعل الله أن يفتح لك الفتح فيعوضك الله عن الغنائم ما هو خير منها) .
وبسط الأمير يده وباع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
ودخل الشيخ المدينة واستقر عند الأمير .

ولئن كان محمد بن عبد الوهاب هو الذي يفرض على محمد بن سعود شروطه بعدم اقتضاء الضريبة ، إن الملاحظة الأساس التي يتمثل فيها طابع الدعوة منذ برزت إلى الوجود - هي العمل بكل سنة الرسول ، لذلك ترى المحمدين (ابن سعود وابن عبد الوهاب) يستعملان في البيعة صبغة الرسول فيستحضران ما صنعه الرسول وأنصاره والمهاجرون ليصنعه من جديد ، وأن البيعة كانت على الجهاد ، فلم تعد المرحلة المقبلة مرحلة هداية مجردة أو إرشاد ، فلقد تطورت طريقة الشيخ بعد نجاحه في العينة وقتل أميرها وجبهه ، وأمسى لازماً أن تتغير الطريقة لتصبح الدم الدم والهدم الهدم .

ولئن لوحظ أن السلطان رجا الإمام ليقب له دخله المفروض على الناس لينفق منه على دولته - إن الإمام سما بالدولة وحمى الناس ، فألغى الضريبة على الناس ودعا للأمير بالنصر الذي يعوضه ما فاتته . ونصر الله أكبر . وعوضه أكثر . وكل أولئك كان ، فلقد صدق المحمدان ، والله مع الصادقين .

“ ” “

ذاعت أنباء هجرة الشيخ من العينة إلى الدرعية فأدت أعظم الخدمات للدعوة بنشر تعاليمها وأخبار ما حققت في العينة ، وهلع أميرها وبطش أمير الأحساء . وتعاضم الرجاء في الدرعية ومن فيها . والفكر بخدمة الأصدقاء والأعداء على السواء .
وتوالت وفود نجد وما جاورها يعتنقون الدعوة ، ويعودون إلى بلدانهم مبشرين ومنذرين ومعلمين .

وظالت سنوات التدريس ، فصارت بشرى الوفود من كثرتها وتلاحقها طينياً في كل سمع ، وحديثاً في كل مجتمع !

ومنهاج الشيخ في الدرس - كمنهاجه في الحياة قاصد صريح وكمنهاجه في التأليف - لا يزخرف القول ولا يرقش الحجج ، بل يجمي بها من مصادرها : (القرآن والسنة وعمل السلف) . وهو عري يفاهه العرب بآيات كتاب لسانه عري وسنن نبي من العرب .

وهو القادم من ميادين التجارب . ونضو العبادة الذي هزل التقشف قوامه . ناصح الجيب نقي

القلب محب إلى الناس . يحمل هموم تبعاته . لا يهيش أحد في مجلسه ولا يثلب غائب . وهو فيأض السخاء مملك بالزمام . لا يفتات الأمير عليه . وإنما ينطلق في خدمة الدعوة من غزاة إلى غزاة . إن مهاجماً وإن مدافعاً . ويطبق أحكام الإسلام ويلزم كل قبيلة أن تتبع قانون المنتصر وما هو إلا عبادة الله وحده والزراية بالثايل والأصنام والخرافات الفعلية والفكرية ليعيد إلى القوم كرامة المسلم .

وأشرفت على جزيرة العرب أيام عظيمة كأنها من جلال صنيعها وبهائه تقدم العذر للتاريخ عن سابقة قبائل نجد أيام ردة العرب .

بل جاء عثمان بن معمر يسعى على استحياء ، ويلتمس أن يرجع الشيخ إلى العينة ، فلم يتقبض عنه ولكنه وعظه ، فهو قد بايع على ألا يترك ابن سعود وعلى أن يكتب الله لها النصر . وإنهما لمنتصران .

وفي سنة ١١٦٣ كان الشيخ في قمة السلطة ، وقتل عثمان بن معمر في العينة ، فقصص الشيخ إليها . وأمر عنها ابنه مشارى بن عثمان ، وبعد عشر سنين عزل مشارى لفساده . وهذه قصر آل معمر ، وهم أحوال آل سعود .

ولما انتشرت الدعوة في بلدان نجد اشتد عنها الأمراء الذين يترك أتباعهم أقاليهم إلى الدرعية ، إذ أصبحت دار هجرة يؤمنها الناس . أو يتجهون تلقاءها بقلوبهم ، ويصدر منها المجاهدون والدعاة والآراء إلى غير مكان . وتشا فيها الأجيال على العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله ، ومحبة الجهاد في سبيله . والزهد في زخرف الحياة ومتاعها الكاذب . والسمي نكل ما هو حق ومصلحة يأذن بها الشرع ، لا رفت ولا فسوق ولا خديعة ، بل مجتمع سلى نموذجي يتواصى بالخيرات ويتضامن في المكاره . والشمل جميع والمودة سابعة والأخلاق رغبة .

والجهاد العسكري بصهر معادن الرجال ، فينبئ خبث الأنكاس والأرجاس ويبقى الفضائل . والقوم يتوافدون إلى الميادين أو منها فرحين مستبشرين . تشد أزهرهم أخلاق النصر التي تعودوها . وأول قانون الإسلام أنه يبلغ مجتمعاته غاية الطهر ونهاية القوة لإخلاص التوحيد وانتصار الناس على شهواتهم وغفلاتهم ، يوم يصدقون ما عاهدوا الله عليه ، فنصير الدولة لهم ويسبقهم الفرع منهم إلى قلوب أعدائهم . ويفرحون بنصر الله لهم والفتح القريب عليهم .

وملاك الأمر في الإسلام : عبادات تقف المخلوق بين يدي خالقه صبايح مساء لتسبويه . وقربات يرتفع بها درجات إلى رضوانه جل شأنه ، وحدود زاجرة تمنع من الإجرام من لم يحرم - وهم سائر الناس - وتغزيرات كفينة بالخزاء على الحظيئة أيا كانت ، ومعاملات قومها العمل للحياة ، يستخدم الناس فيها المال ولا يستخدمهم ، فلا يكترونه أو يخبونه ولا يأكونه

بالباطل أو بالربا أو بالغرر ، ونظام اجتماعي يحمل « إيجابية » الرجل فريضة الإنفاق على الأسرة ويعمل وظيفته المرأة بالتصون . ويحول الزوجين أسباب حسن العمل .

فالأسرة فيه -- لا الفرد -- نواة المجتمع ، وبهذا ينهض المجتمع على أقدام لا على قدم واحدة ويكاد الجار يشرك الجار من تواصله ، والحادم سيد القوم . والأمير أجير عند الرعية والرعية مؤدية له ما يؤديه لحالقه .

وفي كل ذرة من ذرات هذا النظام تجري فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجري الدم في الجسم . فتجعل التواصل اليومي والتكافل الاجتماعي يجعل المنظم الداخلي لنشاط الفرد وتعاون الجماعة . وللعمل اليومي لولى الأمر ، فيعيد هذا المنظم ميزان الفرد والجماعة والدولة إلى الاعتدال في أول بادرة جذيرة بالتقويم والتسديد .

وفي ذلك كله تستعمل الحنيفة السمحة المعطرة البشرية وتشجعها كمثل استعمال الترياق المنبث من الغريزة يفعل فيها ويفعل بها ، فيصلحها ويصلح بها ، فالشريعة لا تغيا إصلاح الناس بالقوة القاهرة لحرية ، أو بالقسوة التي تذبل بها الطبيعة البشرية ، أو بالقوالب المصبوبة التي تقمع الشخصية الإنسانية . ولا تتوسل إلى أنفس الناس بطريقة مصنوعة قد يخرج المكلفون عن إطارها . بل عمادها السليقة المطبوعة على الخير ، لتعود إلى الأصل إذا انحرفت كلما هديت إليه ، وهي أهدي وأقوى وأقصد بعناصرها الذاتية التي تزين الإيمان وتحيه ، وتكره الكفر والفسوق والعصيان ، وتنفر من الظلم وتنبذ الخطي للتقدم صنع الله الذي خلق هذه الأنفس ، وشرع لها أسباب صلاحها ووسائله .

ووطأ الأكثاف في نجد لنظاهرة والقوة اللتين تتناحان فتحدث كل منها الأخرى أن أقاليمها كانت مذ خلقها الله بمنجاة من التطرية المجلوبة من الحواضر . أو التخليط الشعوى الذى أعجل الفرس والترك والأوربيين إلى أقصاف المسلمين . فاستعصمت فيها الأصالة العربية ثم تمت ندمها الطبيعي . فأصبحت أسمع لصوت الدعوة وأقدر على أن تذيع بها في الآفاق البعيدة وأن تبقى فكرها لوضاء ينشر الأضواء في القرون التالية .

وموقع الدرعية في صميم نجد يهب لها القدرة على تحقيق أغراض الدعوة وأسباب الانتصار . إذ كانت على مبعده خمسمائة كيلومتر من البحر في الشرق وألف كيلومتر من الحجاز في الغرب ، فهي قائمة حيث تلتقي الطرق وتفرق ، وتريح القوافل القادمة ، من الجنوب أو الشمال في مكان صالح لنشر الأفكار الصحيحة ونجاحها في تحقيق أغراضها . إذ تشهد القوافل تطبيقها الكامل في مجتمع

متكامل تحكمه دولة صغيرة تبغى وجه الله وحده ، ولهذا كانت محط آمال المتفانين ومحل سؤال من الكثيرين .

وليس الكيلومترات في الصحراء مسافات ، والنام فيها أسمع وأبصر وأكثر تواصلًا مما يتصور أهل الحضر .

وفي التخوم كثير من الخصوم : ففي الأحساء آلاف من الشيعة الاثنا عشرية (١) ، وفي القطيف آلاف من القرامطة (٢) ، وفي اليمن ملايين من الشيعة الزيدية (٣) ، وفي ينبع آلاف من الشيعة الكيمانية (٤) ، وفي عمان خوارج إباضية (٥) .

وفي سائر الأقاليم أهل سنة تجعلهم الجهالة والقرى أشد عداوة للدعوة سواء في الشمال في الشام ، أو في الشرق في العراق ، أو في الجنوب في تهامة وعسير ، أو في الغرب في الحجاز . لكن الخصام كان أعجل في نشر الدعوة والإذاعة بأنبائها لما فيها من فكر أصيل لا تدل منه الأباطيل . كما كانت إحاطة هذه الأقاليم بنجد أنفع للدعوة ، إذ جعلت الدرعية في مركز الدائرة ، وجعلت (حريملا - العيينة - الدرعية - الرياض) تجعل المحور القادر على التحكم بالعقيدة الصحيحة والتضحية في سبيلها .

وهكذا أتبع لإقليم (اليمامة) أن يعظم شأنه مرة أخرى . ولليمامة - كما يسمى القلقشندى وسط نجد حتى إقليم الأحساء - ذكريات أعظم عند المسلمين : ففي الشمال من البلدان الأربعة التي ذكرناها تقع جبيلة حيث مقابر الصحابة الذين استشهدوا في حروب الردة . ومواقع معركة عقرباء بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (١٢ - ٦٣٣) ، وفي وادي بني حنيفة (وهم بطن من بطون بكر بن وائل) عاش أجداد الرجال الأحياء في هذا المكان ، ومنهم من بقى ، ومنهم من غيرت الهجرات مقامه وحل محله غيره : مثل قبائل عترة والرشابذة وشمر .

* * *

كان هودّة وثمّة ملكين على نجد عندما انفجر فجر الإسلام .

فجاء هودّة كتاب من رسول الله يقول : (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هودّة بن علي . سلام الله على من اتبع الهدى . واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر ، فاسلم تسلم . وأجعل لك ما تحت يدك) .

(١) نسبة إلى قولهم بإمامة النبي عشر إماما وهم الإمامية أو الجعفرية نسبة للإمام جعفر الصادق .

(٢) نسبة لحمدان قرمط ، وهم فرقة من الإسماعيلية يقولون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٣) نسبة للإمام زيد بن علي .

(٤) نسبة لكيسان مولى نجبة يقولون بإمامة محمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب من زوجة من بني حنيفة) .

(٥) فرقة من الخوارج هي أكثرهم اعتدالا .

وأجاب هودّة : (ما أحسن ما تدعوني إليه ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تنهّب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك) .

فلما وقف عليه الصلاة والسلام على جوابه قال : (لو سألتني سيابة من الأرض ما قبلت . باد وباد ما في يده) . .

أما ثمامة فأسرته خيل النبي . فلما اقتيد إليه قال له عليه الصلاة والسلام : (ماذا عندك يا ثمامة) ؟ .

قال : عندى خير . إن نعم نعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال قَسَلْتُ نَعَط .

فأمر النبي بإطلاقه ، فأسلم ، ثم عاد إلى الثمامة فنع أهلها أن يحملوا الخنطة إلى مكة . وفى السنة العاشرة قدم وفد الثمامة ووادى حنيقة (١) ، فأسلموا وفيهم جماعة من بني فزارة بن

(١) يقول الشيخ في المختصر : (لما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ضربت إليه أنجاد الإبل لحمل وفود العرب من كل وجه في سنة تسع . وكانت تسمى سنة الوفود . . . فقدم عليه عطار بن حاجب النخعي من أشرف بني تميم ، جاءوا في أمري بني تميم ، الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزاري في الحرم من هذه السنة . وكان عيينة قد أخذ أحد عشر رجلاً واحد عشر من امرأة وثلاثين صبياً وساقهم إلى المدينة . فقدم رؤساء بني تميم فيهم : كالم دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات - وهو في بيته - أن أخرج إلينا . فأدى ذلك رسول الله ﷺ فأذن الله فيهم : (إن الدين يبادولك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) فلما خرج إليهم قالوا : جئنا لتفاحرك . فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال : « أدنت لحظيتكم » فقام عطار فحطب فقال رسول الله ﷺ لذات بن قيس بن شماس « قم فأجب الرجل . فقام ثابت فحطب وأجابه ، وقام من جانب بني تميم شاعرهم الزبير قال بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا نحى بعادلتنا منا سنوك وفينا تنصب البيع

فقال رسول الله ﷺ لحسان « قم فأجب الرجل » فقال :

إن الدونائب من فخر وإخوتهم قد يبوا منا للناس تبع

إن كان في الناس سابقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

قال الزبير بن . قال حسان . . .

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : (إن هذا الرجل لمؤنى ، لخطيئة أبلغ من خطيئة ، ولشاعره أبلغ من شاعره ، ولأصواته أحلى من أصواتها) . فلما فرغ النوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوارهم .

ويقول الشيخ في المختصر عن حروب الردة في عهد أبي بكر :

(لما كان من العرب مكان ، ومنع من مع منهم الصدقة - جد بأبي بكر الجدي قتالهم ، فدعا زيد بن الخطاب يستخلفه) في القيادة فقال : « قد كنت أرجو أن أرقق الشهادة مع رسول الله ﷺ » ، فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرققها في هذا الوجه . وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يدير القتال بنفسه ، فدعا أبا حذيفة بن عتبة . فعرض عليه ذلك . فقال : مثلاً قال زيد ، فدعا سالم مولى أبي حذيفة فأنى عليه . فدعا خالداً فأمره على الناس . فسير خالداً إلى الثمامة .

فلما فرغ خالد من براخة وبني عامر أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بني تميم وإلى الثمامة . . . ففرق خالد السرايا في نوحيا ، فأنت سرية مهم بنى حظلة وسيدهم مالك بن نويرة ، وكان قد بعث النبي ﷺ مصدقا على قومه ، فجمع صدقاتهم ، =

عنفوة فأقطعهم النبي مقاطعات من أرض بني حنيفة ، وكان في الوفد « مسيلمة » بن حبيب خضوه في رحابهم ، فأجازاه النبي معهم وحذر منه . وكان تحذيره تنبيها على ما سينجم في هذه البنية من الأرض ، حيث العصبية الجاهلية في عتفوانها ، وحيث تدور من بعده عليه الصلاة والسلام أعف المearك وأخطرها على الإسلام .

وسنرى حروب الردة في أرض الإمامة وضراوتها ووقوعها بين فريقين يشهدان شهادة الإسلام . لكنها مختلفان في فهم حقيقة التوحيد ، درسا أساسيا من دروس الشيخ في مجالس تدرسه وكتبه . وبخاصة (مختصر سيرة الرسول) .

= فلما بلغته وفاة النبي ﷺ حفل إبل الصدقة : أي ردعا إلى أصحابها ، ولذلك سمى الجفول ، فاستندوا إليه أرهمهم . ويرى الشيخ عن رافع بن خديج قال : (قدمت على النبي ﷺ وفود العرب فلم يقدم علينا وقد أفسى قلوبا ، ولا أخرى ألا يكون الإسلام يفر في قلوبهم ، من بني حنيفة وكان مسيلمة مع الوفد) .

صف خالد جيشه وقدم رايته مع زيد بن الخطاب ، ورفع راية الأنصار إلى ثابت بن قيس بن شماس (خطيب النبي يوم وفد بني نعيم) فقدم بها وجعل على ميمنته أبا حذيفة وعلى يسارته شجاع بن وهب ، واستعمل على الخيل . . . أسامة بن زيد . فاقتلوا قتالا شديدا ، وصبر الفريقان صبرا طويلا حتى كثر القتل والحراح بين الفريقين ، واستمر القتل في المسلمين وحمة القرآن حتى هوا إلا قليلا ، وهُزم كل من الفريقين حتى دخل المسلمون معسكر المشركين ودخل المشركون عسكر المسلمين . وجعل زيد بن الخطاب ومعه الراية يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ، واعتذر إليك من فرار أصحابي ، وجعل يشتد بالراية في غور العدو ، ثم ضارب بسيفه حتى قتل رحمه الله ورضي عنه ، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة فقال المسلمون إنا نخاف أن نثقي من قبلك ، قال : بشم حامل القرآن أنا إذا أتيتم من قبلي ، وناذرت الأنصار ثابت بن قيس ومعه رايته : الزمها ، فإبها ملاك القوم ، فحفر سالم لرجليه حتى بلغ أنصاف صافيه . وحفر ثابت لرجليه مثل ذلك ثم لزمها رايته .

ولقد كان الناس يتفرقون في كل وجه وإن زيدا وثابتا لقاتلان حتى قتل سالم وقتل أبو حذيفة مولا .

قال وحشي بن حرب : اقتلتا قتالا شديدا حتى رأيت شهب البارتحزج من خلال السيوف حتى سمعت لها صوتا كالأجراس . ولم يلق المسلمون عدوا أشد نكاية من بني حنيفة . لقوهم بالموث النافع ، فكان المعون يومئذ على أهل السوابق .

ولما رجع عبد الله بن عمر إلى المدينة قال له أبوه : (ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارت وجهك عنى ؟) وأجاب عبد الله : (قد حرصت على أن يكون ذلك ، ولكن نفسي تأخرت . وقد أكرمته الله بالشهادة) . وذات يوم ذكر عمر وقوعه بالإمامة فقال : (ألحقت السيوف على أهل السوابق ولم يكن المعون يومئذ إلا عليهم ، خافوا على الإسلام أن يكسر بابه فيدخل منه إن فخير مسيلمة . فتح الله الإسلام بهم حتى قتل عدوه وأظهر كلمته . وقدموا رحمهم الله على ما يسرون به من ثواب جهادهم من كذب على الله ورسوله فاستحرجهم القتل فرحم الله تلك الوجوه) .

ومضى زمن على أيام الإمامة وكان عمر يرضى . فرأى رجلا مشككا قومه ، فسأل عنه وعرف أنه متمم بن بويرة أخو مالك بن نويرة . فاستشهده . فأتاه الصديق في أخيه فأشده حتى بلغ قوله :

وكنت كندمى جزمة حقة من الدهر حتى قبل من تصدع

فمن نقرى كنى وماسك تطون احتاج ثم ننت نية معا

قال عمر : هذا والله التأين لوددت أني أحسن الشعر فأراني أخى زيدا يمثل ما رويت أخاك . قال متمم : لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رويت ، قال عمر : ما عزاني أحد عن أخى بمثل ما عزاني به متمم .

والسيرة درس تستحبه الأنفس ، وفي مختصرها تعليق على الحوادث ، واستخلاص للعبر بلغ فيه الشيخ غاياته .

ودروس الردة عن الإسلام كله أو بعضه وقيام الحرب من جراء فساد الاعتقاد مع الإقرار بالشهادة حجة للشيخ في صميم مناجه من :
١ - وجوب إخلاص الخضرع لله وحكمه .

٢ - وجوب الجهاد والحرب لإعادة المرتد عن بعض الأحكام إلى دين الله الصحيح .
والحجج أفل في الأنفس إذا كانت من سُلَاف المحجوجين أنفسهم ، أو وقعت في عقر دارهم في نجد كلها أو اليمامة خاصة . فهي عندئذ تستعمل الزمان الحبيب ، والمكان القريب ، والعامل الإنساني في الإثبات .

٣ - أما الحجة على الشيخ فهي أن يعد للأمر عدته في نفسه وفي الناس وفي الأمير وفي جند الدعوة . فهؤلاء قومه وهذا تاريخهم . وهوينشد هداية الناس . ووضع الندى في موضع السيف مُضر كوضع السيف في موضعه .

٤ - ومن الحجج على الأمير أن يتهور سيف الأمير أويكون كافر الغضب .
ومن أجل ذلك كانت الحرب مشغلة له وإن لم يخرج مع الأمير للحرب ، فهو مسئول عن العلم والإرشاد ، مسئول عن شريعة الحرب والسلام ، لكن العلم ميدانه وحده ، والحرب ميدان الأمير وجند الدعوة .

» » »

في هذه الحقبة النادرة من تاريخ الإسلام عدسة صغيرة يبصر الناظر من خلالها بمعان عظيمة عظمة الإسلام ، ونتائج لها أعظم الأثر في خلوده . ومن المعاني جلال الاستشهاد في سبيل إزاحة الكفر من عقول أهل نجد ، وتطهير جزيرة العرب من الشرك ، بتطهير نجد . وفداحة الخسائر بموت القراء حتى خيف على القرآن ، فأمر الخليفة بجمعه . ومنها إذنه للجوش أن تفتح أرض الله للإسلام خارج جزيرة العرب بعد حروب نجد وبعد الانتصار الذي يأذن للدعوة بالانتشار . ولو تهاون « الصديق » في ردة العرب لانطوى المسلمون في جزيرة العرب على أنفسهم منهزمين .

ومن هذه النتائج يترأى أثر أبي بكر الصديق في كمال حجمه في الإسلام ، وإن كانت خلافته أقصر خلافة للراشدين رضى الله عنهم .

أما عن ميادين المعارك فحسبنا منها في هذا المقام أمور :
١ - أن الكفاح الذي سالت فيه أرواح هؤلاء العظماء قد تم في المواقع التي ذكرناها والتي

مستدور فيها أو في القريب منها معارك دعوة التوحيد الجديدة . وأن بعض من سيخوضونها هم حفدة القوم الذين ناصروا خالدا فحاربوا معه أو ناهضوه وقاتلوا المهاجرين والأنصار .

٢ - أن هذه الناحية وحدها بين عشرات الأنحاء في جزيرة العرب كان فيها متنبئون ثلاثة هم : مسيلمة وطليحة وسجاح بين خمسة في كل أرض المسلمين ! وأن هؤلاء المتنبئين كانوا يظنون بالسيف لأنفسهم صدارة العرب ، وأن مسيلمة الكذاب طلب إلى النبي ﷺ (أول ما تنبأ مسيلمة) : أن يكون له نصف النبوة ونصف الأرض وقال عن قريش إنهم لا يعدلون . وم ينس أن ينزل على نفسه وحياً . وتابعه قومه كفراً :

سأله طليحة الثرى : من يأتيك ؟ (يقصد بالوحى) ؟ قال : رحمان ؟ قال طليحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! واتبع طليحة مسيلمة ، وقتل معه بعد أن كفر متعصبا له ولقومه .

وكمثل تعصب هذين لقومهما وشعوذة مسيلمة كانت شعوذة طليحة الأمدى : لقد تنبأ طليحة في أخريات حياة النبي ، فهم به أحد المسلمين بضربة سيف . لكنه سلم وأداع الأشياء أن اسلاح لا يجوز في نبيهم : فاستغلظ أمره ، ولم يكن أدنى من هذا اللدد عناداً زعيم فزارة الذي تألفه الرسول بالعطاء ، ليظامن جماعهم ويكف غفلتهم ، ومع ذلك كان (عيينة بن حصن الفرارى) بعد أن قبض الرسول يقول :

(والله لأن نتبع نبياً من الحليفين - أسد وغطفان - أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ! وقد مات محمد وبقي طليحة) !

ولما سبق بين أسرى المرتدين إلى أبي بكر بالمدينة كان غلمانها ينخسونه بالجريد ويقولون : أي عدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ؟ فكان يقول للغلمان من كبريائه وهمجيتة : (والله ما كنت آمنت قط) .

وكان عفو الصديق أكبر . لقد حقن دمه ، ولأم جراح بني فزارة ، ودفع الجميع ليفتحوا الأرض بالإسلام .

٣ - أن لقبائل بني تميم مكانة في العرب كما تزخر بذكرهم كتب الأدب ، فالوفد من أشرافهم إلى المدينة هم الذين دخلوا المسجد ، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته يفاخرونه ، ولما قبض رسول الله ﷺ كانوا أول المرتدين .

٤ - أن مالك بن نويرة كان عاملاً للنبي على بني يربوع ، فكان فيمن رد الزكاة لأصحابها ولم ير لأبي بكر حقاً في اقتضاها . وجاءته سجاح - وهي تيممة من بني يربوع - لتعذر إلى بني حنيفة فتزوج مسيلمة الكذاب متئياً بني حنيفة . ثم تفصل عنه راجعة إلى قومها ليلقي مصرعه يوم اليمامة .

٥ - أن يوم اليمامة قد خلده في التاريخ استشهاده لثلاثة وستين من المهاجرين ولثلاثة من الأنصار ومن الباقين كثيرين ، مما أبلغ عدد القتلى مائتين وألفاً من المسلمين .
أما جيش مسيلمة وكان قد بلغ الأربعين ألفاً فقد أفقده الإصرار على الكفر نصف عدده .
بهذا تخلد أسطورة الروح القبلى في بنى حنيفة وبنى تميم فيجعل كل فرد في نجد قلعة مستقلة .
وتغرز في طبيعتهم سليقة الفرقة . وليس بدعاً أن نرى زعيم (فرقة النجدات) الخوارج نجدة بن عويمر - وهو من بنى حنيفة - يخرج على الجميع ، ليجعل كل إنسان أمةً وحده ! فيرى إقامة الإمام غير واجبة وحسب الجماعة أن تلتزم الحق فيما بينها وبين الأفراد وبينهم وبين أنفسهم .

والشيخ يستخرج من هذه الحروب التي أفضنا في ذكرها ، لما فيها من عبر يستنبطها القارئ .
حججاً له على قومه سواء في الفعل أو في الفقه أو في سياسة الدولة أو في أصل العقيدة من عمل الصحابة مجتمعين خلف الصديق رضى الله عنهم . وهي - بعد - صيحة للجهاد في سبيل العقيدة يصيح بها الشيخ ويعمل بأصلها في مجالس الدرس وساحات المعارك ، كما يستصحبها كل مسلم - لا يستعده العيش الغفول عن التصدى للمنكر ، أو يستكفه الجبن الجهول عن الجهاد في سبيل دينه .

ومجالس الدرس هي المجال المحي لهذا العلم العمل ، وهو القوة الضاربة في يد الداعية :
يقول في المختصر ما يفيض فيه في مجالس علمه ويردده في رسائله .
(إن بنى حنيفة أشهر أهل الردة ، وهم الذين يعرفهم العامة من أهل الردة ، وهم عند الناس أقيح أهل الردة وأعظمهم كفراً ، وهم مع هذا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤمنون ويصلون . .) .

ويقول : (وطائفة من أهل الردة - صدقوا مسيلمة أن النبي ﷺ أشركه معه في النبوة ، وذلك أنه أقام شهوداً شهدوا معه بذلك . ومنهم رجل من الصحابة معروف بالعلم والعبادة يقال له الرجال فصدقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة . .) .

ويقول : (إن العلماء في زماننا يقولون : من قال لا إله إلا الله فهو المسلم الحرام المال والدم لا يكفر ولا يقاتل حتى إنهم يصرحون بذلك في شأن البدو الذين يكذبون بالبعث ، وينكرون الشرائع ، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله) .

ويقول : (إن بقايا من بنى حنيفة لما رجعوا إلى الإسلام وتبرءوا من مسيلمة وأقروا بكذبه كبر ذنبهم عند أنفسهم وتحملوا بأيديهم إلى الشغل لأجل الجهاد في سبيل الله لعل ذلك يمحو عنهم آثار تلك الردة . . فتزلوا بالكوفة وصار لهم بها محلة معروفة فيها مسجد يقال له مسجد بنى حنيفة ، فر

بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء ، فسمعوا منهم كلاما معناه أن مسيلمة كان على حق ، وهم جماعة كثيرون ، لكن الذى لم يقله لم ينكره على من قاله ، فرفعوا أمرهم إلى عبد الله ابن مسعود ، فجمع من عنده من الصحابة واستشارهم : هل يقتلهم وإن تابوا أو يستقيم ؟ فأشار بعضهم بقتلهم من غير امتتابة ، وأشار بعضهم باستتابتهم ، فاستتاب بعضهم وقتل بعضهم ولم يستتب .

والقصة في صحيح البخارى . . . فأين هذا من كلام من يزعم أنه من العلماء ويقول : البدو ما معهم من الإسلام شجرة إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله . ومع ذلك يحكم بإسلامهم بذلك ؟ أين هذا مما أجمع عليه الصحابة فيمن قال تلك الكلمة أو حضرها ولم ينكر . . .

ويقول : (في قصة أصحاب على بن أبى طالب . لما اعتقدوا فيه الألوهية التى تعتقد اليوم في أناس من أكفري بنى آدم وأفسقهم . فدعاهم إلى التوبة فأبوا فحذّهم الأخاديد وملأها حطباً وأضرم فيها النار وقد فهم فيها وهم أحياء ! ومعلوم أن الكافر مثل اليهودى والنصراني إذا أمر الله بقتله لا يجوز إحراقه بالنار ، فعلم أنهم أغلظ كفرا من اليهود والنصارى . هذا وهم يقومون بالليل ويصومون النهار ويقرءون القرآن آخذين له عن أصحاب رسول الله ﷺ فلما غلوا في على ذلك الغلو أحرقتهم بالنار وهم أحياء . وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم ، فأين هذا ممن يقول تلك المقالة مع اعترافه بهذه القصة وأمثالها واعترافه أن البدو كفروا بالإسلام كله إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله ؟ .

واعلم أن جناية هؤلاء إنما هي على الألوهية ، والذين قتلهم جنايتهم على النبوة . وما علمنا لهم جناية على الإلهية ، وهذا مما يبين لك شيئا عن معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام . . .) .
ويقول : (ما وقع في زمن التابعين : وذلك قصة الجعد بن درهم ، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة ، فلما جحد شيئا من صفات الله مع كونها مقالة خفية عند الأكثر ضحى به خاند ابن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ضحاياكم فأني مضح بالجعد بن درهم . فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل فذبحه ، ولم نعم أن أحدا من العلماء أنكر عليه ذلك ، بل ذكر ابن القيم إجماعهم على استحسانه . . . فأين هذا من اعتقاد أعداء الله في البدو . . .)

انتشار الدعوة

وكلما قلب الشيخ صفحات السيرة العطرة جاءته العرب باليقين في مستقبل الدعوة ، فمن بعد حروب نجد انطلق المسلمون بالدعوة إلى خارج جزيرة العرب بعد أن ضرستهم الحرب ، فكانت

ميادين تجارب هانت بعدها التضحيات في القادسية واليرموك ومصر ، لم كان الموالى يسلمون من دون معارك تهديدهم حقائق الحنيفة السمحة وعدالة الحكام التي يأمر بها الإسلام وأداء الأمانة لمستحقيها .

والشيخ لا يضع الزمان سدى بل يهذب ويرب ، وربما شهد التدريب للحرب . وله آراء في الحرب تسير مع دروسه إلى ميادين المعارك . . فالتلميذ الصالح هو المجاهد الذي لا يقهر . وأحسن الشيخ استعمال الزمن ، والزمن قوة من قوى الطبيعة لمن تريد السماء نصره . والله مع الصابرين .

والناس يسئلون إلى الشيخ من كل حذب ، يسقيهم من ينابيع التوحيد وسيرة الرسول وأصول الفقه وفروعه ما يحجي الأنفس .

والحروب في الأقاليم المحاورة للدرعية دائرة الرحي لا تكاد تتوقف للذود عن العقيدة والدفاع عن الجماعة . والانتصارات التي وعد بها الله لا تتخلف ، ولهذا شيد الشيخ المسجد الجامع بالدرعية ليسع تلاميذه . . والشيخ حريص على تأليف القلوب بين الوافدين وبين أهل الدرعية ، ليجعل بين الجميع أخوة مثل مؤاخاة رسول الله بين المهاجرين والأنصار .

والشيخ خفيض الصوت مستفيض البيان ، ينساب شرحه في يسر إلى الآذان والأذهان ، فإذا انتهى الدرس قلما يفتر لسانه عن قوله : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويأخذ في إعداد رسائله إلى العلماء في بقاء الإسلام . وهي جميعاً تحمل طابع إملائه وتحتوى حججه . والشيخ يقوت طلابه ويمونهم ، فالعلم مسئولية أخذ الله على العلماء موثقاً أن يبينوها ، فكل نفقة في سبيل تحصيله وجه عبادة ، وأفضلها جميعاً نفقات تعليمه .

وهذا تكاثر ديون الشيخ على مدار السنين . وكان يعجز عن السداد ، فيقبل من الدائنين نظرة الميسرة . ولا يرضى عن التجاوز . حتى جاء نصر الله بفتح مدينة الرياض ، وسدد الشيخ ديونه من نصيبه من الغنائم .

ذلك أن انضمام حريملا والعينة للدعوة ثبت المحرر المكين في نجد ، فطوت أخبارها جزيرة العرب كأمر واقع ، ونصر وعد الله به . وإن لم يتوقف الصدام الدموي الذي ستحدث عن قليل منه بعد . وقد أفاضت في تفصيله مؤلفات ابن بشر وابن غنام ، وحسبنا أن نشير في هذا المقام إلى أن انتصارات آل سعود طبقت آفاق نجد ، وخشي أمير الرياض دهام بن دواس أن تعلق كلمة أمير الدرعية وتضؤل قيمة الرياض . فهاجم الدرعية مرات في سنوات ، لكنه كان ينهزم عنها . أو ترد المحجم عليها بهجوم على عاصمته عاماً بعد عام . حتى حاقت به الهزيمة ، وهرب من الرياض فدخلتها جيوش الموحدنين سنة ١١٨٧ بعد نحو عشرين عاماً من الحروب الدامية ، والوفود ترى

تبايع الشيخ على التوحيد قادمة من شتى بلاد نجد : ضرمى ونرمداء والوشم وأثيفية والعزيقية وشقراء والقرعة وسدير والزلافي وجلجل والحوطة والروضة والخرج والدمام .

• • •

ولما انجبه نشاط الدعوة صوب الحجاز رفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١١٧٢ تقريراً لباب العالي في القسطنطينية يبه الأتراك العثمانيين على خطورتها على كيان الدولة العثمانية في جزيرة العرب ، لكن الدرعية لم تكن تهتم إلا بالدين ، فبعثت وفدأ من ثلاثين عالماً لمناقشة علماء الحجاز . فأفتى قاضي مكة بكفرهم . وزج الشريف مسعود بالوفد في السجن . ومنع أهل نجد من الحج سنين . حتى إذا تلاحت انتصارات الدرعية وارتفع شأن الدعوة في شرق الجزيرة حسن النصر أمرها في أعين الأشراف الذين يحكمون الحجاز باسم (تركيا) وجعل بالصبر قلب أهل الدرعية ، فأصبحوا يتصرفون مع الآخرين من مواقع القوة وأخلاق النجاح :

والشيخ يوالى كتبه إلى أهل مكة فيمن يدعوهم للتوحيد الخالص ، ولذلك طلب إليه شريف مكة أحمد بن عبد العزيز علماء نجد ليفاقهوا علماءه ، واستجابت الدرعية . فبعثت وفدأ رسمياً من العلماء يقدمه خطاب رسمي من أمير الدرعية جواباً عن خطاب رسمي من شريف مكة . وتظهر في عبارات خطاب الأمير آثار قلم الإمام الذي أملاه . وتواضع الداعية ، والجدال التي هي أحسن . وهي الطريق التي أمر بها القرآن وجرت عليها السنة . قال : (وما ضلیم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر ، وهو واصل إليكم ، وبحضر في مجلس الشريف أعزه الله تعالى . هو وعلماء مكة ؛ فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك ، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الخاتبة . . .) .

واجتمع الرسول - الشيخ عبد العزيز بن الحصين - وعلماء مكة فتفاوضوا فيما هم فيه مختلفون . وهو ثلاث مسائل .

الأولى : ما نسب إلى أنصار محمد بن عبد الوهاب من تكفير المسلمين بالعموم .

الثانية : هدم القباب التي على القبور .

الثالثة : إنكار دعوة الصالحين والشفاعة .

وأنكر ابن الحصين المسألة الأولى ، وتمسك بالثانية قولاً بأنه ليس من العلماء من شك فيها . وتمسك بالثالثة ؛ لأنها من الشرك الذي فعله القدماء . . . فجاءوا بكتب الخاتبة ، فوجدوا أن الأمر على ما ذكره ابن الحصين فاقنعوا .

وسشهد بعد أكثر من قرن اقتناع علماء مكة والمسلمين معهم ، ولكن بعد حروب دامية يجعل وزرها السياسيون والجهلاء ، بما فرقت المسلمين وعوقت تقدمهم . وأخرت من وحدة العرب .

كان الشيخ يقول عن نفسه وكأنما يقصد طريقته : (وأنا امرؤ في بعض الحدة ، وهي حدة لا تثبت حقاً ولا تخرج بصاحبها عن الجادة) .

والحدة عرض القوة لكنها تضعف الحجة ، وتسد الطريق على الموعظة .
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الجادة ، ومن الإنصاف يصحح الأمر بالمعروف طريقه ، ليكون أقصد إلى الغرض وأكد للقبول . وبعض الحدة أنجح للذين يتولون التنفيذ أو القيادة في بعض الظروف .

وليست عبارات الشيخ إلى شريف مكة أسجع من عباراته في رسائله إلى العلماء .
يكتب في خطاب : (فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا وتدريبنا عبارات أهل العلم لعل الله يردنا بك إلى الحق) .

وفي ثان (. . .) فإذا أنا لم أفهمه ولا معنى آخر ، فأرشدوني عمى الله أن يهدينا وإياكم وإخواننا لما يحب ويرضى) .

فالشيخ لا يدع حقه لباطل غيره .

وفي ثالث يصدع بأصل من أصول الاجتهاد فيقول : (ومتى لم تتين لكم المسألة لم يحل الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين خطؤه) .

ويصدع بأصل في خطاب رابع فيقول : (لا يجوز إنكار مسألة لا يُعرف حكم الله فيها) ذلك بأن للشرع في كل مسألة حكماً وعلى المجتهد ظنه .

وليست الحجج بكثرتها ولكن بقوتها ، ولا هي بعدد من يقبلونها . ولكن بصحتها وقدر فهمهم لها وانتفاع الناس بها .

والشيخ يكتب في إحدى رسائله : (قال ابن القيم : واعلم أن الإجماع والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفنا أهل الأرض) .

ومن ثم كانت صلابه الدعوة وإصرار الداعية على نهجه ، مادام على الحق .

والشيخ لا يتهاون مع الضالين ولا يتهاون مع الكافرين . بل يجادلهم بالفقه الصحيح والسنة الثابتة .
يقول في خطاب : (وأما مسألة التذكير فكلامك فيها من أعجب العجائب : أنت تقول : (بدعة حسنة) والنبي يقول : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) ، ولم يشئ شيئاً تشير علينا به ، فنصدقك أنت وأباك ونكذب رسول الله ؟) .

وموسوعة الشيخ الفقهية فياضة بالفقه يقول في خطاب : (فهذه ستة مواضع في « الإقناع » في باب واحد . إن من فعلها فقد كفر ، وهي دينك ودين أبيك) .

وقال أيضاً - صاحب الإقناع - ومن قال : إن لأحد طريقاً إلى الجنة غير متابعة

محمد ﷺ ، ألا يجب عليه اتباعه ، أولغيره خروجا عن اتباعه ، أوقال : أنا محتاج إليه في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة أوقال : إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر عن شريعة موسى - يكثر في هذا كله) .

وفي خطاب له يرتفع عن فضول التفاصيل ومصطلحات المتكلمين إلى التذكير بصحابة الرسول فيذكر قول أبي الوفاء بن عقيل : (أنا أقطع أن أبا بكر وعمر ما عرفا الجوهر والعرض . فإن آيت أن طريقة أبي على الجبالي (المعتزلي) خير لك من أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت) .

وهو بهذا يرفع المنهج السلي إلى مكانته بين طرائق أهل السنة حيث أبو بكر وعمر في جوار صاحبهما ﷺ في الذروة ، وحيث تنخفض دونها كل رتبة ، سواء أكانت مرتبة الفرقة الجبائية أم من وراءها من فرق المعتزلة .

• • •

أما عن مشاركة الشيخ في شئون الإمرة فيمكن إجمالها في غلبة السلطان الديني على اسنطان الزماني لصدق إيمان أولى الأمر ، من العالم الكبير والأمير . وعملها معاً ، ولصحة إيمان الجماعة التي ترد كل منحرف إلى القاعدة ، فيحسب حسابها أولو الأمر . علماء كانوا أم أمراء .

وللشيخ سلطان على صاحب السلطان طوال حياته ، لما بينه وبين محمد بن سعود من بيعة كل منهما للآخر . وما بينه وبين ابنه عبد العزيز ، لأنه معلمه ومعلم الأمة والدولة التي أنشأها لهم دعوته . وهو فوق ذلك قد خصه بشرح فائقة الكتاب ، وهذا الوضع ظاهر في تقديم ابن غنام لتاريخه ، وهو تلميذ الشيخ المكلف بوضع تاريخ هذه الملحمة .

وعندما تأخذ الأمير نشوة النصر يذكره ابن عبد الوهاب بحاجته إلى ذكر الله والشكر لأنعمه . فيكتب إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود بطل الملحمة السعودية الأولى إذ فتح الله عليه مدينة الرياض :

(أحب لك ما أحب لنفسى ، وقد أراك الله في عدوك ما لم تؤمل ؛ والذي أراه أن تكثر من قول الحسن البصري وكان إذا ابتدأ حديثه يقول :

اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وفرجت عنا ؛ لك الحمد بالإسلام والقرآن . ولك الحمد بالأهل والمعافاة ؛ كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا . وأحسنت معافاتنا . ومن كل ما سألتنا - ربي - أعطيتنا ؛ فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت) .

والشيخ هو الذي وضع لمحمد بن سعود سياسة الحرب في أمور معروفة منها :

١ - التدريب العسكري المستمر على الحرب . وتحمل المشاق لإعداد العقول السليمة في الأجسام السليمة ، لتتقدم على نشر الدعوة والدفاع عنها .

٢ - الانتفاع بالتكنولوجيا المعاصرة في الحرب والتدريب على استعمال البنادق ، وكانت قد دخلت حديثاً في جزيرة العرب مع جيوش الأتراك .

٣ - استعمال الحرب الاقتصادية لتحقيق الأغراض العسكرية والسياسية : كتأديب قوافل التجارة التي تصدف عن طريقها العادى في أرض نجد ، لمنع تجارات الإقليم مع الخارج ، وتقصر تجارتها على بلدان العدو .

٤ - الإفادة من تلاميذ الشيخ وأتباعه ، ليكونوا عيوناً للدعوة يظهر من ما يضر أعداؤها لها . وأعاوناً أشداء إذ تقارب جيوشها مدنهم ، فلا يطول حصارها أو قتالها وتستسلم .

٥ - وكان تركه السيادة القانونية في الإمرة لابن سعود آية الصدق في دعوته ، بالبعد عن المظاهر ، والزهد في الحكم ، قدر ما كان وسيلة لتأليف قلوب الحكام .

٦ - وكانت الأناة والرحمة نصيحة دائمة منه للأمير ، ولقد طالما نهى الأمراء عن القسوة وبخاصة عبد العزيز بن سعود ، إذ نصحه ألا يتهور سيفه ، أو تتجاوز الحدود مسالحه ورباطاته ؛ فالإسلام حنيفة سمحة ورسوله رحمة مهداة .

وإنما انتقل التخريب إلى العراق أو كربلاء - خصوصاً - بعد موت الإمام ، ومن جرائه قتل عبد العزيز بيد شيعي هاله هدم قبة الحسين رضي الله عنه .

وبالإغارة على العراق وجد الأمير السعودي نفسه وجهاً لوجه مع الإمبراطورية التركية ؛ إذ كان الأتراك أصحاب السلطة الفعلية على العراق . ويومئذ بدأ الصدام مع الأتراك .

ورمى الخصوم الشيخ بإفك يبيع له العرب . قالوا : إنه أجاز سبي العرب . وهي شنة يستنكرها الشيخ بصوت عال ويدل على استنكاره بتاريخ حروبه . فيقول (لا نرى سبي العرب ولم نفعله ولا نرى قتل النساء والصبيان) في حين يجيز قتل مانعي الزكاة وتاركي الصلاة كما صنع أبوبكر .

والشيخ بذلك يضرب لنا مثلاً على اجتاده المطلق ، فهو لا يرى سبي العرب في حين كان أحمد بن حنبل صاحب المذهب يراه ، لأنه يعمل بالحديث إذا بلغه ولا يعمل برأى غيره مها كان مصدره . يقول أحمد : (لا أذهب إلى قول عمر « ليس على عرى ملك » قد سبي النبي ﷺ العرب في غير حديث ، وأبوبكر وعلى حين سبي بني ناجية) ولم يثبت عند أحمد حديث معاذ أن النبي قال يوم حنين : (لو كان الاسترقاق جائزاً على العرب لكان اليوم : إنما هو أسرى) .

والشافعي يقول في الأم : (أخبرنا سفيان (بن عيينة) عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (لا يسترق عرى) قال الربيع : قال الشافعي : (ولولا أننا نأثم بالعتي لتبيننا أن يكون هذا هكذا) .

في سنة ١١٧٩ - ١٧٦٦ مات محمد بن سعود (١) وخلفه ابنه وبطل حروبه بعد إذ أبلخت بطولات الرجلين دعوة الشيخ أبعد حدود نجد وتخطتها إلى ما تلاها من الأقاليم . عندئذ بعث الشيخ إلى عبد العزيز يعتزل المشاركة في الغزوات والسياسات . وإن ظل يشير في الأمور . وفي الأعوام العشرين الأخيرة من حياته انقطع لتعليم المسلمين وهو قوى البنية ، رفيع القامة ، له وقار وهيبة ، وجمال منظر الداعية المظفر (٢) . وطالت مجالس العلم وتعاقبت السنوات تحمى بشائر الفتح والنصر وانتشار الدعوة في الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وعاد إلى الشيخ الفتاة ؛ ففى كل نصر ونجاح فكر أسباب للقوة والفتوة . ولكل أجل كتاب .

• • •

فى صيف سنة ١٢٠٦ - ١٧٩٢ بلغ الشيخ الواحدة والتسعين من العمر . واخلق الأجل . وكان قد ثقل ، فصرفته صوارف الهرم عن الحياة العامة ، لكنه ظل يهدج إلى المسجد متهاذياً بين اثنين ، حتى انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٣) .

(١) تخذل اسمه الآن الجامعة الإسلامية (جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض بالملكة العربية السعودية ودرّسها قاصرة على العلوم الشرعية .

(٢) تزوج الشيخ في حياته الطويلة بأكثر من امرأة : الأولى منهن في العينة قبل الرحلة الأولى للحجاز ، وتزوج في العراق ، ومن بينهن بعد الجوهرة بنت الأمير عبد الله بن معمر .

ومن أبنائه ٦ ذكور و٦ إناث

أما البنون فهم : إبراهيم وهو فقيه ، استشهد على أيدي الأتراك عقب سقوط الدرعية سنة ١٢٢٣ - وإخوة إبراهيم هم : عبد العزيز . كان قاضي العينة ثم حريلاً . وحسين وعلى وحسن وعبد الله . وقد شارك عبد الله أخاه حسناً في القضاء . وكان لعبد الله ولدان (سليمان وعبد الرحمن) قتل إبراهيم باشا أولها وبعث الآخر صغيراً إلى مصر مع أبيه ، فبقى في مصر أربعين عاماً حتى توفى سنة ١٢٧٤ - ١٨٥٨ بعد أن أحيا فيها المذهب الحنبلي . أما حسن فله أبناء علماء أشهرهم : عبد الرحمن بن حسن رئيس قضاة المسلمين في عهد تركي بن عبد الله .

ومن ذريته الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي السعودية في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن وسعود بن عبد العزيز .

عبد العزيز . وتولى حين الإفتاء والتدريس مع أبيه .

وله أولاد منهم حسن وله ولد اسمه عبد الله كان رئيس قضاة نجد زماناً ومن بناته أم الملك فيصل . وأنجب ابنه عبد الرحمن في مصر . وله ذرية فيها . ولما مات منهم محمد بن عبد الرحمن حتى بن أحمد الأرحي (وكان صيدلياً) نعت صحيفة الأهرام الوسعة الانتشار في العالم العربي في عيدها الصادر بتاريخ ١٩٣٨/١/٢٣ .

(٣) تولى منصب الدعوة بعد موت الشيخ أباؤه . وحفدته ، فاختص آل الشيخ بالعلم والقضاء ،

وخلف الشيخ في منصب الدعوة ابنه حسين وكان كفيلاً . ولحقه الدرعية ، فكانت له الإمامة والخطبة .

وخلف حياً أخوه عبد الله وابنه علي بن حسين .

وهجر علي الدرعية إذ دمرتها مدافع الأتراك على ما استشده بعد . ولجأ إلى رأس الخيمة على ساحل الخليج العربي ، وشهد ضرب الأسطول البريطاني لها .

علي بن مشرف النخعي

إبراهيم

سليمان مات سنة ١٦٦٨ ميلادية

محمد

عبد الوهاب مات سنة ١١٥٣ - ١٧٤٠

سليمان ١٧٩٤

محمد ١١١٥ - ١٢٠٦ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢

حسن

إبراهيم

عبد العزيز

علي

عبد الله

نفي إلى مصر

عبد الرحمن

عبد الطيف

إبراهيم

سليمان

عبد الرحمن

نفي إلى مصر . درسي في رفاق
الجناب بالآخر وعاد إلى نجد
سنة ١٢٤١

عبد الرحمن

محمد

علي

حمين

حسن

عبد الله قاضي قضاء نجد

أم الملك فيصل بن عبد العزيز

عبد الملك

إبراهيم

محمد بن إبراهيم

الفتي العام مات

دئس حية

سنة ١٣٧٢ هـ

= الأمر بالمعرف =

وسعت حياة الشيخ أجيالاً ثلاثة ! هياً أولها للدعوة أن تنفذ إلى القلوب ، وهياً الثنى لها أن تحتلظ بالدماء إذ تنقلها دماء جيل إلى جيل ، وهياً الثالث لها أن أصبحت «طريقة حياة» للجماعة ، وبهذا حاربت الأجيال الثلاثة دون عقيدتها بضراوة وستحارب . وعندما يصبح الانتثار بالمعروف والانتفاء عن المنكر «طريقة حياة» لأمة تسمى خير أمة أخرجت للناس .

وحسب الدعوة وصاحبها جزاء أن تُصنع هذه الأمة على عينه ويده ، وأن تبغ شأوها في حياته .

والخلد منتهى همم كبار تضع صاحبها في مكانه من التاريخ قدر ما أحدث من أثر . وليس من الممكن حصر آثار الشيخ أو تراثه في الأمة الإسلامية ، لأنها تتعلق بالعقيدة وما تفتده في الدنيا من صلاح ، وفي الجماعات من تطور . وإن ساع لنا أن نشير إلى بعض الأبعاد التي أدركتها :

أولها : أنه علم المسلمين في عهده ومن بعده عقيدة التوحيد الصحيحة ، ولم يكن في ديار المسلمين أيامئذ عالم أثبت منه قدماً في الفقه أو إطلاق الاجتهاد وبجانب التقليد . فلما جاهد دون آرائه وقرن الجهاد بالاجتهاد أضاف إلى ما علمه للقرون اللاحقة أن الجهاد والاجتهاد معاً واجبان لإحداث التقدم واستمراره . وأن الإصلاح لا تفتده أقوال المتعبدين ، وإنما يحدثه رجل صلب يجاهدون . وأن الجهاد فرض عين على من تعين له ، وقد يكون جيلاً بتمامه .

ثانيها : أن قوام الأمة يعود إلى الاعتدال بظهور رجل واحد صادق العزم يعاونه حكام صدق تستجيب الأنفس لما يدعونها إليه ، إذ يأخذون أنفسهم به ولا يخالفونهم إلى ما يهينهم عنه : إذا حاربوا كانوا أقرب الجيش إلى العدو ، وإذا سالموا كانت للناس في تقواهم الأسوة الحسنة .

ثالثها : أن الجماعة الصالحة والدولة الصالحة صنوان ، وأن الدعوة الصادقة تقيمها معاً فالجماعة الساهرة على الفضائل لا تستبق إلا دولة تحميها .

رابعها : أن المنهج السلفي قد أثبت في حياة الشيخ وبعد مماته ، وبدليل عملي حتى من واقع الجماعة التي نهجته - اقتداره على إحداث الأطوار الضخمة في تاريخ الأمة من طور الجهاد للاستقلال إلى طور الكفاح لتثبيت الدولة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر إلى طور استعمال التكنولوجيا المعاصرة في القرن الرابع عشر كما سئرى بعد .

وهذا الإنجاز الحضارى آية على أبدية الحنيفية السمحة وتمكينها العقل البشرى أن يبلغ شأوه .

- وكان اهتمام الترسين بدعوة ابن عبد الوهاب عدلاً لاهتمام الإنجليز بدولة آل سعود .

فى أول القرن التاسع عشر لميلاد ظهر فى باريس كتاب (تاريخ الوهابية من بدء ظهورها حتى ١٨٠٩ وضعه Covtancez عضو المجمع العسمى الذى أشاه نابليون معمر ثم صار عضو الأكاديمية الفرنسية .